وحدة المؤمنين
رؤيةُ مُسلم ..

الدكتور مروان الرفاعي*

صنَّف القرآن الكريم البشرَ من حيث معتقداتهم إلى مؤمنين وأهل كتاب ومشركين وكفّار ومنافقين. وكلّ فئة متميّزة عن الأخرى ولها كيانها الخاصّ. ولو تحوّلت طائفة إلى معتقَد آخر لم يَبقَ لمعتقدها الأوّل ذكر، وأصبحت تنضوي إلى فئة المعتَقَد الثاني. فلو تحوّلت فئة كافرة إلى مؤمنين لم يعد هناك ذكر للكفّار في نظر هذه الفئة. وعلى ذلك، فأهل الكتاب هم غير المشركين والكفّار وعلاقتهم بالمسلمين مميّزة: ﴿اليومَ أُحِلَّ لكم الطيِّباتُ وطعامُ الذين أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصَّناتُ من المؤمناتِ والمحصَّناتُ من الذين أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبلِكُم إذا آتيتُموهنَّ أُجورَهُنَّ مُحْصِنينَ غير مُسافِحينَ ولا متَّخذي أَخْدانٍ ومَنْ يَكْفُرْ بالإيمان فقد حَبِطَ عملُهُ وهو في الآخِرَةِ مِن الخاسِرين﴾ [المائدة: ٥]. إلّا أنّ بعض المسلمين يقولون إنّ وصف المسيحيّين بأهل الكتاب ينطبق عليهم قبل البعثة المحمّديّة، أمّا بَعدها فمَن لم يؤمن بها عُدّ كافرًا،

(*) طبيب جرّاح، باحث - حلب. لقد وجّه حضرته إلى إدارة المشرق في أثناء الصيف الماضي الكلمة التالية: «... لمّا لاحظت أنّ مجلّتكم تسعى جاهدةً لدفع عجلة الحوار بين الإسلام والمسيحيّة وسائر الأديان دفعًا حثيثًا، وتقرّب بين المؤمنين بالله وقيَمه التي بيّنها في الأديان السماويّة، رأيتُ أن أدلي بشهادةٍ منّي تؤكّد ضرورة المتابعة في هذا السبيل. وعليه أرفق كتابي هذا بالمقالة التالية، ولكم منّي أطيب التمنّيات».

وعلى ذلك، فإنّ وصف أهل الكتاب لا ينطبق على المسيحيّين بعد البعثة. هذا التأويل ليس له أساس في القرآن الكريم منذ أوّل آية نزل بها الوحي على محمّد (ﷺ): ﴿إقْرأ باسمِ ربِّك الذي خَلَق﴾ [العَلَق: ١] في ١٠ آب ٦١٠م، حتّى آخر آية نزلت عليه في ساعاته الأخيرة قبل أن يُقبَضْ: ﴿واتَّقُوا يومًا تُرْجَعونَ فيه إلى اللهِ ثمّ تُوَفَّى كلُّ نَفسٍ ما كَسَبَتْ وهُم لا يُظْلَمُون﴾ [البقرة: ٢٨١] في ٨ حزيران ٦٣٢م. ونستشهد بالحادثة التاريخيّة عند زيارة وفد نصارى نجران رسول الله في ٨٠ شخصًا برئاسة عبد المسيح بن الحارث القحطانيّ. فهؤلاء قد قابلوا الرسول (ﷺ) وجهًا لوجه ولم يؤمنوا بما جاء به. وأكثر من ذلك، فقد تحدّوه إلى المباهلة ثم انسحبوا عنها، وعلى ذلك - بحسب رأي تلك الفئة من المسلمين - يجب أن يُعدَّ وفد نصارى نجران وما يمثّلونه من عقيدة كفّارًا. وينطبق الشيء نفسه على مَن حمل معتقداتهم من معاصريهم وأسلافهم.

إلّا أنّ الأمر لم يكن كذلك. فقد استقبلهم الرسول (ﷺ) في مسجده، وعندما حان وقت الصلاة (العصر غالبًا) قام (ﷺ) فصلّى بالمسلمين متوجّهًا نحو القِبلة. وقام نصارى نجران فصلّوا في مسجد رسول الله وبحضرة الرسول وصحابته متّجهين إلى الشرق. وقد عاملهم الرسول على أنّهم أهل كتاب وقَبِل الجزية منهم. والأكثر من ذلك، فقد وصف سبحانه وتعالى نصارى نجران بالمؤمنين. فقبل البعثة المحمّديّة حاول ملك اليمن اليهوديّ يوسف ذونواس الحميريّ حمل نصارى نجران على اعتناق اليهوديّة في تشرين الأوّل ٥٢٣م، وحفر خندقًا أشعل فيه النار وخيّرهم بين الدخول في اليهوديّة أو إلقائهم في النار، وقيل إنّه قضى منهم عشرون ألفًا آثروا أن يضحّوا بأنفسهم حرقًا على أن يضحّوا بعقيدتهم، ونزل فيه: ﴿قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُود. النارِ ذاتِ الوَقُودِ. إذ هُم عليها قُعُودٌ. وهُمْ على ما يَفْعَلونَ بالمُؤمنينَ شُهُودٌ. وما نَقَمُوا منهم إلّا أن يؤمِنُوا بالله العزِيزِ الحَمِيد﴾ [البروج: ٤-٨].

كما يستشهد آخرون بالآيات التي تذكر كفرَ بعض فئات أهل الكتاب: ﴿لَقَد كَفَرَ الذين قالُوا إنَّ اللهَ هُو المسيحُ ابنُ مَرْيمَ وقالَ المسيحُ

يا بَني إسرائيلَ اعْبُدُوا اللهَ ربّي وربَّكُم إنَّه مَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَد حَرَّم اللهُ عليه الجَنَّةَ ومَأْواه النارُ وما للظَّالمينَ من أنْصارٍ. لقد كَفَرَ الذين قالُوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما مِن إلهٍ إلَّا إلهٌ واحِدٌ وإنْ لم يَنْتَهُوا عمّا يَقُولونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُوا مِنْهم عذابٌ أليم﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣]. ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ قُل فَمَنْ يَمْلِكُ منَ اللهِ شيئًا إنْ أرادَ أنْ يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مَرْيمَ وأُمَّه ومَن في الأرضِ جميعًا ولله مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنهما يَخْلُق ما يَشاءُ واللهُ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. ﴿وقَالَتِ اليهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالَتِ النَّصارى المَسيحُ ابنُ اللهِ ذٰلكَ قولُهم بأفْواهِهِم يُضاهِئون قولَ الذينَ كَفَرُوا من قَبْلُ قاتَلَهُم اللهُ أنَّى يُؤفَكُون﴾ [التوبة: ٣٠]. ومع أنَّه سبحانه وتعالى قد نفى أن يكون له ولد ﴿ما كانَ للهِ أنْ يَتَّخذَ مِنْ وَلَد سُبحانَه إذا قَضَى أمْرًا فإنَّما يَقُولُ كُنْ فَيَكونُ﴾ [مريم: ٣٥]، وقال ﴿إنَّ الله لا يغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ به ويَغْفِرُ ما دُون ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَد افْترى إثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذٰلِكَ لمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَد ضَلَّ ضَلالًا بَعيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. ﴿وإذْ قالَ لُقمانُ لابْنِه وَهوَ يَعِظُه يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيم﴾ [لقمان: ١٣]. إلَّا أنَّ سُبحانه قال بحقّ النصارى: ﴿لَيْسُوا سَواءً مِنْ أهلِ الكِتابِ أمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ وهُمْ يَسْجُدُون. يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ويأمُرونَ بالمَعْروف وينْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ ويُسارِعُون في الخَيراتِ وأولٰئكَ مِنَ الصَّالحين. وما يَفْعَلوا مِنْ خَيرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ واللهُ عَليمٌ بالمُتَّقين﴾ [آل عِمْران: ١١٣، ١١٤، ١١٥]. وقال: ﴿كُنْتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ تَأمُرُون بالمعروفِ وتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤمِنون باللهِ ولو آمَنَ أهلُ الكتابِ لَكانَ خَيرًا لَهم مِنْهم المُؤمنونَ وأكْثَرُهُم الفاسِقون﴾ [آل عِمْران: ١١٠].

أمّا القائلون «عُزَير ابن الله» فهم فئة من اليهود اندثرت وبادت ولم يبقَ لها أثر. أمّا بحقّ أهل الكتاب فقد قال الرسول (ﷺ): «مَن آذى ذِمّيًّا فقد آذاني». فقد رفع (ﷺ) من منزلة المؤمنين من أهل الكتاب وجعل أذيّتهم كأذيّته هو نفسه، ولم يكن (ﷺ) ليقول هذا في حقّ مشرك أو كافر،

فلقد كان شديدًا عليهم كما تشهد بذلك سيرته العطرة: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيهم ومَأواهُم جَهَنَّمُ وبِئسَ المَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا قاتِلُوا الذين يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. كما طمأن عزّ وجلّ عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بقوله: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا والذينَ هَادُوا والصَّابِئونَ والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيهم ولا هُمْ يَحْزَنونَ﴾ [المائدة: ٦٩]. ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا والذينَ هَادُوا والنَّصارى والصَّابِئينَ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُم أَجرُهُم عند رَبِّهم ولا خَوْفَ عَلَيهم ولا هُمْ يَحْزَنون﴾ [البقرة: ٦٢]. وترك أمر الفصل بين الناس ومعتقداتهم إليه وحده يوم الحساب: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا والذينَ هَادُوا والصَّابِئينَ والنَّصارَى والمَجوسَ والذينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يومَ القِيامةِ إِنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شَهِيد﴾ [الحجّ: ١٧].

وقد تسرّى (ﷺ) بماريا القبطيّة وهي كتابيّة أهداها له المقوقسُ عظيمُ القبط وولدت له ابنه إبراهيم. وعثمان بن عفّان (رض) الذي لُقّب بذي النورَيْن لأنّه تزوّج اثنتين من بنات الرسول (ﷺ) أم كلثوم بعد رقيّة، وقال (ﷺ) لو كان عنده ابنة ثالثة لزوّجه إيّاها، ومع ذلك فقد تزوّج عثمان (رض) بعدهما بكتابيّة وهي نائلة بنت الفرافصة وقد دافعت عنه عندما داهمه المتآمرون، إذ عالجه الغافقيّ بطعنة حربة وسويدان بطعنة رمح فكان أن قطعت ثلاث من أصابعها. كما تزوّج معاوية بن أبي سفيان من كتابيّة وهي ميسون بنت بجدلة وقد بنت كنيسة بجانب مسجد دمشق كانت تدقّ أجراسها عندما ينادي المؤذّن للصلاة. كما تزوّج حذيفة بن اليمان، موضع سرّ رسول الله، بيهوديّة في المدائن. ومن الذين تزوّجوا بكتابيّات عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبدالله.

وقد كسا (ﷺ) يوحنّا بن رؤبة صاحب بردة أشتراها أبو العبّاس السفّاح بـ ٣٠٠ دينار. وفي وصيّة أبو بكر (رض) لجيش أسامة وهو ذاهب لقتال الروم: «وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع

فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له» وكان لعمر بن الخطّاب (رض) مملوكًا نصرانيًا هو أسبق عرض عليه الإسلام مرّات فأبى. ولبس عمر (رض) قميصًا استعاره من نصرانيّ في الجابية وتوضّأ من خابية نصرانيّة. كما حكم لقبطيّ من مصر أن يقتصّ من عمرو بن العاص لأنّ ابنه ضرب القبطيّ في سباق بينهما. ولمّا دخل عمر بن الخطّاب (رض) القدس جلس على مقعد في صفّ كنيسة القيامة، وعندما حان وقت الصلاة دعاه بطريرك القدس صفرونيوس أن يصلّي في الكنيسة، فرفض عمر إذ استشعر أنّ المسلمين من بعده سيجعلون ذاك المكان الذي صلّى فيه مسجدًا، وهو يقدر مقام هذه الكنيسة لدى المسيحيّين، فقام وصلّى خارج بناء الكنيسة. وبالفعل، فقد أقام المسلمون مسجدًا في ذلك الموضع، واليوم يقوم مسجد عُمَر قرب كنيسة القيامة. (وقد رفض صلاح الدين نسف كنيسة القيامة بعد فتح القدس تبعًا للعهدة العمريّة) ثمّ واصل سيره إلى بيت لحم فدخل كنيستها وصلّى في صحنها، ثمّ أصدر أمرًا خطّيًا حتّم على المسلمين ألّا يقيموا الصلاة في هذا المكان المقدّس إلّا واحدًا تلو واحد، وألّا يجتمعوا فيه ولا يتنادوا للصلاة هناك أبدًا.

وبنى عبد الملك بن مروان قبّة الصخرة، التي تعتبر من أولى القباب التي بنيت في الإسلام، رمزًا لوحدة الأديان على وحدانيّة إبراهيم الخليل (ع س): إسلام، يهوديّة، نصرانيّة. وحكم القاضي أبو يوسف (تلميذ أبي حنيفة) لنصرانيّ في خلافه مع هارون الرشيد. وأفتى معاوية رجال الدين النصارى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي. وبعد فتح دمشق أرسل المسلمون أبناءهم إلى الكتاتيب القائمة التي يديرها النصارى. وأرسل سعد بن أبي وقّاص (جفينة) وكان من نصارى الحيرة كي يعلّم الكتاب في مدينة رسول الله. وطلب عمر بن الخطّاب (رض) إلى يزيد بن سفيان ومعاوية أن يبعثا له روميًّا كي يقيم الحساب والفرائض. كما قسّم عمر بنفسه سبي قيساريّة على يتامى النصارى وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين. وفي المقابل كان المسلمون المقيمون في بيزنطية أحرارًا يتمتّعون بقسط وافر من الحقوق المدنيّة والاجتماعيّة. كما كان لهم

مسجد في القسطنطينيّة يقيمون الصلاة فيه، كما كان منصور بن يوحنّا بمثابة وزير الماليّة في عهد الخلفاء الراشدين.

وقد دعى سبحانه وتعالى إلى مجادلة أهل الكتاب بالحسنى: ﴿وَلَا تُجادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إِلَّا بالَّتي هي أَحْسَنُ إِلَّا الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُم وقُولُوا آمَنَّا بالَّذي أُنْزِلَ إِلَينا وأُنْزِلَ إِلَيكُمْ وإِلٰهُنا وإِلٰهُكُم واحدٌ ونَحْنُ له مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقال اللورد هدلي: «إنّني أعتقد أنّ هناك آلافًا من الرجال والنساء مسلمون قلبًا ولكنّ خوف الانتقال والرغبة في الابتعاد عن التعصّب الناشئ عن التغيير تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم». ومن الموحّدين المتأخّرين إسحاق نيوتن (١٦٤٠-١٧٢٧م) وجوزف بريستلي (١٧٧٣-١٨٠٤م) مكتشف الأوكسيجين ومؤلّف تاريخ ما لحق بالنصرانيّة من تحريفات. وعندما عُرِض على فارس الخوري، رحمه الله، أن ينطق بالشهادة في مرضه الأخير، قال: «الله أعلم بما في القلوب»، وأوصى أن يُقرأ على جثمانه مقاطع من الإنجيل المقدّس وآيات من القرآن الكريم. ﴿وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيكُمْ وما أُنْزِلَ إِلَيهِم خاشِعينَ لله لا يَشْتَرونَ بآياتِ الله ثَمَنًا قليلًا أُولٰئكَ لَهُم أَجرُهُم عِنْدَ رَبِّهِم إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ [آل عِمْران: ١٩٩]. وفي كَفَرْسيتا، وهي موقع سياحيّ لاصطياف الأطفال المعاقين على ساحل البحر في سورية، اقتطعت السلطة الكنسيّة القسم الجنوبيّ الغربيّ من قاعة الكنيسة نفسها لتكون مسجدًا ولتحقّق بذلك وحدة المؤمنين في مكان واحد، فالمذبح يتّجه نحو الشرق والقبلة إلى الجنوب: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوةً للذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقربَهُم مَوَدَّةً للذينَ آمَنُوا الذينَ قالُوا إِنَّا نصارَى ذٰلِكَ بأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسينَ وَرُهْبانًا وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

منذ الحرب العالميّة الثانية ظهرت ٢٥٠ فرقة جديدة عبّرت تعاليمها عن عدم رضاها عن الأديان القديمة وتحنّ إلى شيء تستبدله بها، لأنّ أفرادها لم يجدوا في الأديان القديمة ما يروي غليلهم إلى الاطمئنان الروحيّ المنشود، ولينهوا أزمة وجدانيّة كانوا يعيشونها. فما أحوج

المؤمنين إلى أن يكونوا الشعلة التي تضيء لهؤلاء التائهين طريق العودة إلى الله تعالى، وإلى أن يرووا تعطّشهم إلى طمأنينة الروح والقلب.

وفي هذه الأيّام، إذ تتداعى الأخلاقيّات والقِيَم الإنسانيّة وتتفاقم موجة الكفر والإلحاد وتستفحل، يبرز تكتّلُ المؤمنين على اختلاف عقائدهم، واجتماعُهم على نقاط التقاء أملًا في قيادة الإنسانيّة إلى مكانها السامي، والعودة إلى المُثل الأخلاقيّة، فيكون الإيمان هو أساس الوازع الأخلاقيّ الذي نتحلّى به، وبذا تكون إنسانيّتنا على أسس متينة ونكون جديرين باللقب الذي تكرّم الله وأنعم به علينا، خلفاء له في أرضه، فندعو إلى سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوا إلى كَلمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُم أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبابًا مِن دونِ اللهِ فَإن تَوَلَّوا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

من منشورات دار المشرق